جواهر ثمينة في عقد المتنبي

أهدى المتنبي للأدب العربي جواهر ثمينة من غالي الكلم، يعرف قيمتها هواة الحرف، ففيره من الشعراء أحسن في بعض أبياته، ولكن هذا الشاعر أحسن في قصائده، وهذه جماليات فاتنة من جيد شعره، لا يحدها فن من وصف أو غزل أو مدح أو حكمة، خذ قوله في الصفح الجميل:

وفيكَ إذا جَنَى الجانِي أناةٌ تظَنُّ كرامةً وهي احْتِقارُ

فأنت لو ذهبت تنثر هذا العقد الفريد، لجعلته كلامًا منثورًا لا يحفظ، ولا ينقل، وإنما سبيله الإهمال والإغفال، ولكن طالع إلى سبقه للمعنى، وسبكه للفظ، ورشاقته في العرض، وعلى قوله تعالى عن الأعداء: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] يقول:

ويَحتقرُ الحسَّادَ عن ذكره لهم كأنهم في الخلقِ ما خلقوا بعدُ

وهذا غاية المدح في عظيم يمتهن أعداءه، ويحتقر حساده، إلى درجة أنه يعاملهم معاملة المعدوم الذي لم يخلق بعد، وهل لهذه سابقة لهذا المتفرد اللوذعي.

وفي الذكر الحسن وتصويره بالحلل الجميلة التي تستر الجسم في بهاء، وتظهر الملبوس في سناء يقول:

ورَفَلتَ في حُللِ الثَّناءِ وإنما عَدَمَ الثَّناءِ نهايةُ الإعدامِ

فهو حائك يجيد نسج الكلام بعناية، ويختار الكلمات بقصد، ويعمد إلى أجل المعاني بترصد وتعمد.

وفي باب كل حلاف مهين، يفاجئنا بنظرية تربوية ونفسية لا أعلم أحدًا سبقه إليها، فقال:

وفي اليمينِ على ما أنتَ واعدُهُ ... ما دلَّ أنكَ فـي الميعـادِ مُتَّهـمُ

فكثرة الحلف مظنة الكذب ﴿ **وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ** ﴾ [**القلم**: ١٠] .

وهل البلاغة إلاّ أصابت كبد المعنى بإيجاز من القول، مع سلامة من الإعياء اللفظي، ونجاة من الإسفاف، وترفع عن الرخيص من اللفظ.

وفي مسألة: وجزاء سيئة سيئة مثلها، تثور ذاكرته الهادرة بهذه الحكمة.

إذا أتتِ الإِسـاءةُ مـن وضَـيع ... ولَـمْ أَلُمِ المسـيءَ فمـن ألـومُ

وهذا البيت له قوته وسمو معناه، ما يكفل له الخلود والانتشار؛ لأن الناس يعيشون كل يوم في هذه المأساة، وهي جناية الأنذال، وحماقات الأشرار الذين يستحقون التبكيت والقصاص المر.

ويُحلّق عاليًا في المدح؛ ليصف ممدُوحِيه بالشجاعة، حتى أنهم يرون الموت أمنية، والفناء مطلبًا، والبارود مسكًا زكيًا في الأنوف، فيقول:

كأنهم يَرِدُون المـوتَ مـن ظمأٍ ... أوينشَـقُونَ مـن البَارودِ ريحَانَا

وكأني بالمدوحين وقد ذابت نفوسهم فرحة، وامتلأت صدورهم بهجة، وعمت وجوههم نضرة النعيم.

ويغوص ـ حسبه الله ـ باقتدار وموهبة ذكية على معنى شرعي أدبي فيقول في ممدوحه:

عَليكَ مِنكَ إذا أُخليتَ مُرتَقِبٌ لم تأتِ في السِّرِ ما لم تَأتِ إعلانا

فهو يصفه بحياة الضمير، وحضور المراقبة، والوضوح المشرق، والبعد عن النفاق والالتواء، وهذا من دقيق فهمه، ومن ثراء مخزونه الثقافي الجياش؛ لأننا سئمنا المديح المكرر الممجوج، الذي توارد عليه الشعراء، من أن ممدوحه يكرم الضيف، ويضرب بالسيف، وينحر الناقة السمينة، ويقتل البطل الصنديد.

وتعال إليه وهو ينوّه بنفسه على عادته في الإعجاب بها، والافتتان بجدارتها، ويقول:

وما كلُّ من يَهوى يَعِفُّ إذا خَلا عَفَافي ويُرْضِي الحُبَّ والخيلُ تُلتقي

فهما تقوى في خلوة حيث لا رقيب إلا الله، ولا حارس إلا الضمير.

وله فلسفة باهية، ونظرات جسورة، وتأمل دقيق، يقول في الحب:

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصلِ ربُّه وفي الهجرِ فهو الدهرُ يرجو ويتَّقِي

ومع جزالة المعنى حلاوة في اللفظ، ونضارة في القالب، حتى كأنك تمضغ حبات السكر، أو تعبُّ ماءً نميرًا، أو تذوق عسلًا مصفًّى.

وهو بارع في جل حكمه، وفي غالب مدائحه، وفي أكثر مذاهبه الشاعرية، واستمع إليه ليحدثنا عن قضية عاش فيها الناس جميعًا ولكنهم يغفلون عنها، يقول:

إذا ما لبِسْتَ الدهرَ مستمتعًا به تخرقْتَ والملبوسُ لم يتخرقِ

فقف بقلبك أمام هذه اللوحة الهائمة الحسناء، واقرأ جملة لبست الدهر وكلمة تخرقت، ثم تأمل المعنى، وتدبر مفهوم الكلام؛ لترى عقل شاعر جبار، وأديب خطير، ويتحفنا ـ لا فُضَّ فُوه ـ بفائدة علمية جليلة، لكنه لا يهديها لنا سامجة بل مزينة معطرة محلاّة، فيقول في خشوع القلب:

وإطراقُ طرفِ العينِ ليسَ بنافعٍ إذا كان طرفُ القلبِ ليس بمطرقِ

فللقلب طرف كما للعين طرف، وله إطراق كما إطراق العين، لكن إطراقه أسمى وأجل، فيا لها من صورة بديعة، ومن خيال خصب.

وله في عالم التمثيل بروز وسبق يناسب تقدمه في فنه، يقول في جودة استماع ممدوحه إذا سُئِل العطاء:

كأن كلَّ سؤالٍ في مسامعه قميصُ يوسفَ في أجفانِ يعقوبِ

وكأني بك وقفت على نصف البيت الأول تنتظر المشبه به، وتتحرى صورة بديعة من التمثيل تشبع الخيال، وتملأ العاطفة، فيسعفك بهذا الوصف المشرق الوضيء السامق، المنتزع من القرآن الكريم، فيمتلئ الجو بهاءً وسناءً وإبداعًا.

ويشيِّع ممدوحه بعدما ارتحل من هذه الحياة فيتوجه بقوله:

كَفَلَ الثناءُ له بردِّ حياتِه لمَّا انطوى فكأنهُ منشورُ

فما أبدع ما قال، وما أظرف ما نطق به، وانظر إلى قوله كفل الثناء له برد حياته، فهو لم يمت أصلاً فله من الحضور والذكر الجميل والثناء الحسن ما

يجعله حياً بين محبيه، وانظر إلى قوله لما انطوى فكأنه منشور، فهو قماش يطوى وينشر، يطويه الموت، وينشره الثناء الحسن.

ويصف ممدوحه بعلو الهمة والابتعاد عن الكسل والخمول فيقول:

كثيرُ سهادِ العينِ من غيرِ عِلَّةٍ ... يؤرقُهُ فيما يشرِّفه الفِكْرُ

فطالع المديح الدقيق، والاحتراز في قوله من غير علة، ليبعد عن ممدوحه سهاد المرض، كما قال عز وجل:﴿ **تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ** ﴾ [طه: ٢٢]، ثم اختياره لكلمة يؤرقه، فهي أجمل من ينبهه ويسهره في موضعها، ثم إن سهر ممدوحه ليس على معصية أو سلوة أو لهو، بل هو تفكر فيما يرفع ذكره، ويبني مجده، ويتلطف في بديع مدحه ويقول:

فلا تبلغَاه ما أقولَ فإنَّه ... شُجَاعٌ متى يذكر له الطَّعنُ يشتَقِ

فارع سمعك لهذه الشفافية المرهفة، والروح المتألقة؛ لترى مدى قوة أسره، ومعرفته بأسرار التأثير.

ويعتذر إلى نفسه في الحب، ويلتمس من اللائمين العذر له فيرسل لنا هذه الجوهرة:

وما كنتَ ممن يَدخلُ الحُبُّ قلبَهَ ... ولكنَّ من يبصرْ جفونك يعشَقِ

فهل سمعت أن شاعرًا سبق هذا الإمبراطور إلى هذا الفتح المبين في عالم الشعر، وفي اقتناص درر القريض، والغوص على جواهره. فحيًّا الله فصاحة بذكاء، وبيانًا بفهم، وبلاغة بعبقرية.

obeikandi.com

والمتنبي سابق في نقل الصورة إلى المشاهد، ورسم المثال في الذهن، فهو أبرع في الرسم من ريشة رسام حذق متمرس، اسمع له يقول:

ألذُّ من الصهباءِ بالماء ذِكْرُهُ وأحسنَ من يُسْرٍ تلقَّاه مُعدِمُ

فمذهب التجديد يحمل لواءه هذا الشاعر المصقع؛ لأننا بقينا قبله نعيش على مديح مطرد تقليدي لا يغير ولا يبدل، يوصف فيه الممدوح بالليث والغيث وأن كفه غمامة، وبيته منهل ماء، وناره من الكرم لا تنطفئ إلى آخر تلك القائمة المحفوظة عن ظهر قلب.

وتعال معي إلى ورقة من دفتر اختراعه، وديوان إبداعه يقول فيها:

أحقُّهمَ بالسَّيفِ من ضربَ الطلى وبالأمنِ من هانتْ عليهِ الشدائدُ

ومعناه أن أولى الناس بأن يتقلد السيف والولاية من ضرب رؤوس الأعداء بسيفه أي شجاعًا، وأولاهم بأن يأمن جانب عدوه من هانت عليه شدائد الحياة ومصاعب العلياء، وغمرات الحروب، إن بإمكان أي خطيب أن يمطرنا بهذا المعنى في نثر بهيج، لكن أن يقدمه لنا في لوحة مائسة ووشي منمنم فهذا من مهمة أبي الطيب شاعر الدنيا.

وهو يتحفك بتجربة رائدة عثر عليها في حياة المتاعب والعواصف يقول:

وما الخوفُ إلاّ ما تخوَّفَهُ الفَتى وما الأمنُ إلاّ ما رآه الفَتَى أمنا

فليس الخوف هو ما أتت به الحوادث والنكبات، وإنما شعور المرء بالخوف أعظم من نفس الحدث كما قال أحدهم:

لعمرَك ما المكروهُ إلا انتظارُه وأعظمُ مما حلَّ ما يُتَوقعُ

ودونك ـ رعاك الله ـ نفحة زكية من حديقة فكره المغدقة:

وللحســادِ عـذرٌ أن يَشـِحّوا　　على نظـري إليـه وأن يذوبـوا

فإنـي قـد وصـلتُ إلـى مكــانٍ　　عليـه تَحْسُـدُ الحـدقَ القلـوبُ

فالرجل لا يفارقه جمال العبارة، وخصوبة الخيال، وروعة التعبير، فبديهته حاضرة، وقلبه شهيد، وريشته تقطر إبداعًا وفتنة. وما سمعنا بشاعر اعتذر إلى حساده وسامحهم إلا هو، وليس كرمًا منه لهم، وإنما نكاية بهم، ورفعة للممدوح بحيلة ذكية.

وقف قليلًا معه وهو يتحدث مع الزمان، يقول:

أتـى الزمـانَ بنـوه في شبيبته　　فســرَّهُم وأتيناهُ على الهرمِ

فهو يرى أنه متأخر رتبة، ولو أنه متقدم لفظًا؛ لأن الزمان الذي عاش فيه زمان لا يقدر العظماء، ولايحتفل بالنوابغ، ولا يكرم الأفذاذ، ويقول أيضًا:

أريـدَ مـن زَمَـني ذا أن يبلِّغَنـي　　ما ليسَ يبلغُه من نفسهِ الزمنُ

فلا زمانه يساعده، ولا أصدقاؤه يعضدونه، ولاحساده يتركونه، ولا الملوك يحتفلون به، ولكن عزاؤه هذا الشعر السائر الخالد، الذي بقي عبقه في أنوف الجهابذة، ودويّ صوته في آذان الأجيال، فهو أعظم شاهد على جدارة هذا النابغة، وسطوعه ولموعه، كما قال:

وتَركُكَ فـي الدُّنيا دويًّا كأنمـا　　تَداولَ سـمعَ المرءِ أنمُله العشرُ